الإمام الترمذي

أعلام الحديث

الإمام الترمذي

هو الإمام محمد بن عيسى بن سورة أبو عيسى، المولود في قرية بوغ من قرى ترمذ على نهر جيحون سنة 209.

اختلف فيه، فقيل: ولد أعمى، والصحيح أنه أضر في كبره، بعد رحلته وكتابته العلم.

وطاف في البلاد الإسلامية طلبا للحديث ثم رجع إلى وطنه واستقر فيه. كان آية في الحفظ والذكاء. وكان إماما ثقة حجة ورعا زاهدًا توفي ببلده سنة 279 هـ. وهو أحد العلماء الحفاظ الأعلام، وله في الفقه يد صالحة.

أخذ الحديث عن جماعة من أئمة الحديث، ولقي الصدر الأول من المشايخ مثل قتيبة بن سعيد، وإسحاق بن موسى، ومحمود بن غيلان، وسعيد بن عبد الرحمن، ومحمد بن بشار، وعلي بن حُجر، وأحمد بن منيع، ومحمد بن المثنى، وسفيان بن وكيع، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وغير هؤلاء، وأخذ عن خلق كثير لا يُحصون كثرة.

وأخذ عنه خلق كثير، منهم محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي المروزي.

وقد أثني عليه أرباب الحديث والفقه فقد قال عنه ابن حبان في (الثقات): كان أبو عيسى ممن جمع، وصنف وحفظ، وذاكر.

وقال أبو سعد الإدريسي: كان أبو عيسى يضرب به المثل في الحفظ.

وقال الحاكم: سمعت عمر بن علك يقول: مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى، في العلم والحفظ، والورع والزهد، بكى حتى عمي، وبقي ضريرا سنين [1].

ومن مناقبه: أن البخاري روى عنه حديثا خارج الصحيح وحسبه بذلك فخرا وله في الفقه والحديث يد صالحة وكتابه جامع الصحيح يدل على عظيم قدره واتساع حفظه وكثرة اطلاعه وغاية تبحره في هذا الفن حتى قيل: إنه لم يؤلف مثله في هذا الباب ومن تصانيفه: شمائل النبي ﷺ وهو أحسن الكتب المؤلفة في هذا الباب، كثير الميامن والبركات.

وقد أنشد قاضي القضاة أبوالخير شمس الدين محمد بن محمد الدمشقي الشيرازي المعروف بابن الجرزي صاحب الحصن الحصين رحمه الله تعالى حين تم قراءته في مجلسه الشريف نظم:

أخلاي إن شط الحبيب وربعه : وعز تلاقيه وناءت منازله
فإن فاتكم أن تبصروه بعينه : فما فاتكم بالسمع هذي شمائله

وعلى الشمائل شروح كثيرة منها شرح القسطلاني، والجلال السيوطي، وابن حجر المكي، وعلي القاري الهروي، وعبد الرؤوف المناوي، والشيخ سليمان الجمل وللشيخ إبراهيم المصري الباجوري رحمه الله تعالى عليه حاشية حافلة سماها المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية وعليه شرح للفاضل القنوجي الشيخ عليم الدين القريشي سماه درر الفضائل في شرح الشمائل [2].

(1) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي، سير أعلام النبلاء، 25 / 274.
(2) أبو الطيب السيد صديق حسن القنوجي، الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1/ 252.

وومن تصانيفه في علم الحديث، كتابه «الصحيح» أحسن الكتب وأكثرها فائدة، وأحسنها ترتيبًا، وأقلها تكرارًا، وفيه ما ليس في غيره: من ذكر المذاهب، ووجوه الاستدلال، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح، والحسن، والغريب، وفيه جرح وتعديل، وفي آخره كتاب «العلل»، قد جمع فيه فوائد حسنة لا يخفَى قدرُها على من وقف عليها.

قال الترمذي - رحمه الله تعالى -: صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز فرضوا به، وعرضته على علماء العراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم.

وكتابه هذا يكاد ينفرد من بين الكتب بمنهج خاص وبطريقة فريدة تميز بها. فقد ذكر العلماء أنه جمع في هذا الكتاب بين طريقة الشيخين: البخاري ومسلم في صحيحيهما: ففيه استنباطات عميقة قيمة تذكر بطريقة الإمام البخاري. وفيه ترتيب دقيق وجمع لاحاديث الباب في موضع واحد وعناية بالفوائد الاسنادية، وذلك يسهل على الباحث الوقوف على الحديث في مكانه، وهذا يذكر بطريقة الإمام مسلم. وذكر العلماء أنه خرج في كتابه الصحيح والحسن والضعيف، وكان يبين درجة الحديث.

ومن خصائص كتاب الترمذي أنه جاء بمذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار، فكتابه من الكتب التي تعنى بأدلة الاحكام، وقد سمى الترمذي - في الغالب - مع كل حديث من احتج به من أئمة أهل المذاهب، وذكر - في أحيان كثيرة - ما عارضه به الاخرون. ومن أجل ذلك كان كتابه من المصادر المهمة لدراسة الخلاف بين

مدارس الفقه المختلفة.

لقد اشتهر كتاب الترمذي عند العلماء باسمين اثنين: الأول: " جامع الترمذي ". والآخر: " سنن الترمذي ". وهو با لأول أكثر وأشهر، وبه ذكره الحفاظ المشهورون: كالسمعاني، والمزي، والذهبي، والعسقلاني، وغيرهم. إلا أن بعضهم - من المصنفين وغيرهم - أضافوا إلى الأول لفظة " الصحيح "

فقالوا: " الجامع الصحيح " وكان الحاكم أبو عبد الله والخطيب البغدادي يسميان " كتاب الترمذي ": " الجامع الصحيح ".

وقد جمع هذا الكتاب كثيرا من الفوائد والعلوم التي لا توجد في كتاب شيخه البخاري: " الجامع الصحيح " وغيره من كتب السنة، وقد أشار إلى شيء من هذا الحافظ الذهبي [1]، فقال رحمه الله: " قلت : في

" الجامع علم نافع، وفوائد غزيرة، ورؤوس المسائل، وهو أحد أصول الإسلام، لولا ما كدره بأحاديث واهية بعضها موضوع، وكثير منها في الفضائل ". وقد أوضح ذلك الإمام أبو بكر بن العربي في أول شرحه على " الترمذي " فقال: ".. وفيه أربعة عشر علما، وذلك أقرب إلى العمل وأسلم: أسند، وصحح، وضعف، وعدد الطرق، وجرح، وعدل، وأسمى، وأكنى، ووصل، وقطع، وأوضح المعمول به، والمتروك، وبين اختلاف العلماء في الرد والقبول لاثاره، وذكر اختلافهم في تأويله. وكل علم من هذه العلوم أصل في بابه، وفرد في نصابه، فالقارئ له لا يزال في رياض مونقة، وعلوم متفقة منسقة،

(1) سير أعلام النبلاء، 3 / 274.

وهذا شيء لا يعمه إلا العلم الغزير، والتوفيق الكثير، والفراغ والتدبير „ [1].

* * *

(1) انظر: مقدمة كتاب ضعيف سنن الترمذي لمحمد ناصر الدين الألباني.